اللغة العربية بين خصوصيات الهوية وعالمية الفكر

مقاربة لسانية اجتماعية

د.نعمان بوقرة

مُقـــدّمة

تعاني العربية اليوم من غربة حضارية وثقافية و اجتماعية بين الناطقين بها عن قصد وغير قصد ،وكان من نتاج هذه الغربة الاجتماعية ظهور غربة ثقافية للذات العربية نفسها ،وأزمة في تفكير الإنسان العربي وقدرته على العطاء الحضاري بشكل عام ،وطريقة رؤيته للآخر في عالم متداخل من اللغات والإيديولوجيات والقيم ،وبات من القدر المحتوم أن يعاني الناطقون بهذه اللغة من ويلات التهميش في ركب التقدم العلمي الزاحف ،ومن هنا يظهر أنه ليس من السهل الدفع بالعربية إلى ساحة مواجهة غير متكافئة مع لغات أخرى تسيطر على حلبة الصراع الثقافي والمعرفي والتكنولوجي مما يتحتم على الذات العربية أن تعيد بناء قدرتها الذاتية لمواجهة الآخر بمنافسته على كافة الأصعدة ، وبكل الأدوات علها تحقق استقلالها المفقود ،وخصوصيتها الحضارية، ومن هنا يمكن أن نشرع لسؤال مهّم هو: كيف السبيل إلى إحداث قفزة نوعية لترقية اللغة العربية وجعلها لغة عالميةفي ظل التحديات العولمية الكبرى ؟في ضوء هذا الإطار المفهومي تتنزل رؤيتنا المحاورة للواقع اللغوي العربي، وتجلياته المشهدية

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

في الراهن الثقافي المنجز ، على أن نتوقف عند أهم الآليات المتصلة بتفعيل الدور التداولي للغة العربية في المستوى التعليمي بشكل خاص من خلال التوقف عند النقاط التالية:

1-ضرورة تيسير منظومة القواعد العربية في العملية التعليمية بالتركيز على مبدإ الوظيفة والتحديد الكمي، والغرض التداولي مع الاستفادة من النظرية اللسانية الحديثة التي مازالت موضع رهان واختلاف عند الكثيرين .

2-الفصل بين تعليم مسائل اللغة وكيفية استخدام اللغة في التواصل ،وهذا من صميم التوظيف البراغماتي للغة في الحياة العامة للمتكلمين(اللغة والهوية)

3-إعادة النظر في نوعية النص التعليمي الذي يعكس بنية اللغة العربية وخلفياتها الثقافية الراهنة بشكل خاص،فقد آن الأوان لكي يعاد الاعتبار النوعي والكمي **للنصوص الأصيلة** في العملية التعليمية في جميع المستويات مثلما هو معمول به في البيداغوجيا الغربية .

لقد شهد العالم اليوم تحولات جذرية في مناهج التفكير والبحث العلمي في جميع نواحي الحياة البشرية والكونية تتجه به نحو فلسفة وجودية وحيدة المسلك والغاية، محاولة صياغته وقولبته بطريقة واحدة[1]،سعيا إلى خرق فكري منظم لبنية الهُويه[2]وأنساقها الثقافية والأخلاقية واللغوية والنفسية والاجتماعية[3]، وثمة مسألة جد مهمة تتعلق بخطورة عدم التمييز بين المنظور اللغوي للهوية والمنظور الثقافي لها ،فقد كرس الخلط بينهما مشكلات اجتماعية وإيديولوجية لا يمكن تجاهلها في كثير من البلاد العربية، مما يجب أن نعيد النظر فيه، ذلك أن المعادلة الكلاسيكية التي تحدد تشكل الدولة بالشعب واللسان لا تلقي بالا لتلك المتغيرات الثقافية الداخلية في الجسم الواحد، وربما نزعم أن فشل

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

بعض البلدان في تعميم التعريب يعزى إلى هذا العامل بالذات فتحولت العملية من مسارها العلمي (ترجمة وتأليفا و إبداعا) إلى مشكلة إثنية مستعصية الحل.

1- اللغة ووحدة الرؤية (رؤية العالم) في المنظومة اللسانية الحديثة

من الواضح أن أفراد المجتمع الذي يتكلمون لغة واحدة يشتركون في النظرة الكونية ، فلكل لغة طريقتها في تقطيع العالم الخارجي كما يشير إلى ذلك اللساني الدانماركي **لويس هيلمسليف** في استشهاده بألوان قوس قزح من حيث اختلاف اللغات في تحديد عددها ومن ثم التعبير عنها بوسائط علامية مختلفة([4])، غير أنه من الممكن أن تشترك جماعات مختلفة ثقافيا في لغة واحدة، كما يمكن أن توجد لغات مختلفة نمطا ثقافيا مهيمنا في جماعات مختلفة ، لقد ذكر **سابير** في أوائل القرن العشرين ، أن اللغة والجنس والثقافة[5] ليست بالضرورة متلازمة ، إلاّ أن هذا لا يعني أن لا تتلازم أبدا[6]،وكتب **سومارفليت** في هذا فقال:إن اللغة ظاهرة اجتماعية ، والتغيرات التي تعرفها هي أيضا ذات طابع اجتماعي لكن هذا لا يعني أن هناك تقابلا بين البنية اللغوية والمجتمع الذي يستخدم هذه البنيات كوسيلة للتواصل ،إن البنية اللغوية يمكن أن تبقى على حالها من غير تغيير بالرغم من التغيرات الثورية التي يمكن أن تحدث في الأنماط الثقافية والاجتماعية[7]، كما يقرر **سابير** في سياق آخر أن العالم الحقيقي للفرد يتحدد بتلك العادات اللغوية المختلفة بالضرورة عن أخرى في أنظمة اجتماعية مختلفة لغويا عن نظامه الخاص ،وفي هذا السياق يستوقفنا رأي **وورف** الأمريكي الذي يقرر أن اللغة ليست مجرد وسيلة للتعبير عن الأفكار بل هي نفسها التي تشكل تلك الأفكار[8]، ولعل هذه الفكرة هي نفسها التي عبر عنها **جوزيف فندريس** بقوله : إن الكلام يفتح العالم المغلق في حياتنا الداخلية ، ويسمح لنا

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

بالخروج عنه؛إنه مبدع وصانع الحياة الاجتماعية[9]، واللغة نفسها هي المرشد إلى الواقع الاجتماعي، إنها تؤطر بالقوة تفكيرنا جميعا[10]، كما تشير مجموعة الآراء اللسانية المنسوبة للتيار الوظيفي في اللسانيات الحديثة إلى عمق الصلة بين اللغة والسياق الثقافي والاجتماعي إذ لا يمكن أن تحلل الظواهر اللغوية نفسها بمعزل عن العامل الاجتماعي ، كما لا يمكن التكهن بالأدوار اللغوية للعبارات والملفوظات في التخاطب اليومي بالاكتفاء بالوصف البنيوي الشكلي أو التوزيعي ، لقد ذهب **ماتسيوس** رائد حلقة **براغ** اللسانية إلى أن جذور اللغة تمتد إلى البنى الاجتماعية بكافة أشكالها من ذلك مثلا أساليب الحديث المختلفة والتي تشي في اختلافها بتنوع المستوى الاجتماعي والثقافي والفكري والأيديولوجي للمتحدثين ، كما أن اللغة تهدف بالأساس إلى نقل المشاعر والرغبات الخاصة التي تغلف العبارات المنطوقة بحكم الانتماء إلى البيئة المائجة بشتى المعطيات الثقافية والدينية والفلسفية[11]، فمن إفرازات البيئة الاجتماعية العربية-مثلا-قول العربي واصفا حالة الانبساط النفسي الناتجة عن الطمأنينة : هذا حدث أثلج الصدور ، بينما يواجه الفرنسي الحالة النفسية نفسها بتعبير مغاير تماما يقول فيه cette chose sa me chofe le Coeur والبون شاسع بين التعبيرين هنا .وعلى صعيد البحث الأنثروبولوجي يشير **مالينوفسكي** العالم البولندي الذي كان له التأثير الكبير في نظرية **فيرث** السياقية في كتابه الشهير الحدائق الساحلية وسحرها (Coral gardens and their magic) أنه من الصعوبة بمكان ترجمة ما يتعلق بالعادات والتقاليد من مفاهيم وتصورات خاصة إلى لغة أخرى، فهي أنساق تند عن التعبير اللغوي لخصوصيتها المطلقة[12]، كما نجد تأكيدا على تمازج البنية اللغوية والمكون الثقافي عند مؤسس النحو النظامي(systemic grammar) **مايكل هاليدي** وخلاصة رأيه : **أن الاختيارات**

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

اللسانية المتاحة في نظام لغوي ما هي التي يعول عليها المتكلمون للتعبير عن أفكارهم وأحاسيسهم المرتهنة بالثقافة الاجتماعية السائدة[13]، كما يؤطر الحدث اللغوي بالعادات والأعراف الاجتماعية والموروث الشعبي بحسب وجهة نظر **ديل هايمز**.

2-اللغة والهوية

أحاول الابتداء في هذا السياق بطرح سؤال مهم كان قد طرحه أحد الغربيين في كتاب عنوانه ***هستريا الهوية*** ،وهو : من أنا ؟ومن الطريف أن يسعى في الإجابة على سؤاله إلى تأكيد المفارقة بين المساواة والتميز ،مشير إلى أن الفكر الأوربي قد غيّر موضوعه بفعل مد العولمة من المساواة والعدالة التي طالما بحث عنها خلال عصر النهضة إلى الرغبة في أن يستقل الفرد عن غيره بعدما كان همه السعي إلى أن يكون مثل غيره ، وهذا تماما جوهر الهوية ، والتي تبدو بنية موروثة في الضمير الجمعي ، متجذرة في الذات بعمق على حد تعبير **ديول ريكور** إلا أن هذا البعد الوراثي للهوية في علاقتها مع الذات لا يجب على الإطلاق أن يحجبها عن الواقع ثم يأسرها بقيود الماضي فتنغمس فيه بعيدا عن اللحظة الراهنة ذلك ،أن استنادا إلى المقوم التراثي بأبعاده الثقافية واللغوية يجب أن يكون دافعا إلى العمل المستقبلي والمشاركة الفاعلة في صناعة الحضارة العالمية[14]، وبالتالي سيكون المثقف العربي مطالبا بالتمييز بين موقفين متناظرين أحدهما يشي بالاتكاء على الحمولة الثقافية الماضوية ، اتكاء سلبيا ،وثانيهما مستند إليها استنادا إيجابيا ليصوغ منها حاضره وغده بوعي أصيل،لقد وقعت الأجيال في مأزق صعب لم تسطع الفكاك منه ، لا أجد له صياغة لغوية تعبر عنه غير استحضار النص التراثي نفسه ، فقد عبر **التوحيدي** عن مأزق الاستلاب

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

والتبعية للآخر: لقد أشكل على الإنسان الإنسان، فما كان منا إلا أن جردنا سلاحنا الأخير ،متّخذينه متراسا في الآن نفسه، وقلعة نحتمي بها ذلكم هو التراث الذي احتمينا به منذ سقوط الأندلس وسقوط بغداد وسقوط الخلافة!!، فما كان من هذا الاحتماء القصبي إلا أن جعل الذات العربية تخسر حاضرها ومستقبلها وماضيها في الآن نفسه، غير أن هذا لا يعني إحداث انقلاب على الذات بمهاجمة هذه القلعة التعيسة التي احتمى بها كل نادب ومندوب، ومحاولة هدمه من الداخل ،أو نقبها سرا كما فعلت **يأجوج ومأجوج** نتيجة شعور مستلب بالذنب، كما فعلت نخب التجديد الحديث في وطننا بحجة الاندماج في الحداثة ثم أخيرا العولمة، مزينة لها الهلاك في صورة تضحية أو فناء في الذات الغربية .

3-اللغة العربية ولغة الآخر

إن الحديث عن اللغة العربية العالمية يتنزل في سياق معايشتها للغات أجنبية تنافسها في العطاء الحضاري بوجهيه الثقافي والتكنولوجي ، وهذا يتطلب منها احتواء لكثير من الأنساق الصوتية والتركيبية ضمانا لتحقق التكيّف البنوي والمعرفي في وسط راهن متعدد الثقافات تؤطره فلسفة العولمة[15]التي تقضي في مسارها الحتمي باستيعاب كل الأنساق غير القادرة على الإسهام في الحراك الحضاري العالمي ،ولما كان القرن الحالي تراكما لمنجزات معلوماتية رهيبة تعاين اللغة العربية تحديات جد معقدة لا ينفع معها إعداد متكلم عربي أحادي اللغة ، بل لابد أن تنصرف جهود المؤسسات العلمية والتعليمية إلى نشر معرفة لسانية متعددة تعبر عن الاختلاف اللساني المعيش بانتهاج طرائق تعليمية جديدة تدخل في حسابها الاختلاف البنوي للأنظمة اللسانية ،والخصوصية الثقافية ،

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

وحاجات المتعلمين ورغباتهم وأهدافهم ،والربط بين الغرض التبليغي للغات والبعد التداولي لها فتتحول اللغة العربية بجهود العاملين إلى وسيلة نقل معرفي في إطار حركة الترجمة الآلية العالمية ،وترقية الكفاية اللسانية بالقدر الذي يؤهلها إلى أن تكون قادرة على الإنتاج والإبداع[16]، وسيكون هذا الضمان الوحيد لاستمراريتها في العالم الحديث كلغة حية تجمع بين الوظيفتين التواصلية -وهذا أمر تشاركه فيها جميع اللغات -والوظيفة الحضارية كوعاء لإنتاج الثقافة والمعرفة واستقبالهما في إطار حوار الأنا مع الآخر ،ذلك أن العولمة في رأي بعض المفكرين ليست قسرا على الأمريكان واللغة الإنجليزية فقط ،فإذا كان للغات الأخرى حضور فعلي فالعولمة وقائع وانجازات و إمكانات موضوعة برسم البشر أجمعين[17] ،وأهم ما يميّزها كونها عملية مستمرة من التغيير الحيوي في مجالات عديدة[18] ،وهذا التصور يقود إلى إمكان الحديث عن شراكة لسانية بعيدا عن روح الهيمنة و الاحتواء التي تمارسها العولمة الجديدة المكرسة لسياسة التحويل القسري للألسن نحو لسان واحد ورفضا لمبدأ التنوع اللساني في العالم ، وسعيا حثيثا نحو تنميط الفكر الإنساني ليقبع خالدا في سجن العبودية الأمريكية والمركزية الغربية،وربما هذا ما قصده رئيس جمهورية **فرنسا** في خطاب ألقاه يوم 14 يوليو 1998 دعا فيه إلى ضرورة انفتاح المؤسسات التعليمية على التعدد اللغوي بما يضمنه من تنوع ثقافي يمكن أن يكون ضمانا مهما للتصدي لمخاطر العولمة الثقافية،وفي هذا الإطار سخرت الحكومة الفرنسية إمكانيات هائلة لتقيق نجاعة تعليم ونشر الفرنسية برعاية الأكاديمية الفرنسية و**اللجنة العليا لحماية الفرنسية**[19]، كما دعا الاتحاد الأوربي إلى العناية بتعليم اللغات بشكل جدي ،متخذا سنة 2001 سنة للّغات في كامل أوربا تكريسا للغاية نفسها[20]، بل ضمنت السياسة الإمريكية العناية بالتعليم متعدد اللغات في قانون 1968 على

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

الرغم من التكلفة الباهظة له ،[21] وفي ظل مد العولمة أضحت العربية المستهدف الأول في هذه الهجمة بخاصة وأنّ دعاة العولمة الأمريكية لاينفكون يقرنون الإرهاب بالثقافة الإسلامية التي تمثل العربية وعاءها ، والتعريب وسيلتها الأساسي[22].

إن مواجهة هذا التحدي يكون بالتّفعيل داخل منظومة العولمة ذاتها دون التخلي عن الخصوصية الحضارية[23] بدءً بإصلاح منظومة التعليم العربي وتعليم اللغات وفي مقدمتها العربية للناطقين بها وكذا للأجانب وفق منطلقين أساسين أولهما :

- التخلص تدريجيا من حمولة الماضي في الطريقة والهدف وبعض الممارسات التنظيرية ،ولعل أسلم طريق أن يندمج التفكير النحوي التراثي في النظرية اللسانية الحديثة فيكون جزءًا أساسيا منها ورافدا لا ينضب لمجراها السريع.

- أما ثانيهما فضرورة الدخول بقوة في الإبداع اللغوي باستحداث وسائل نوعية في تعليم اللغة العربية وتعلمها ونشر ثقافتها ،والترويج لها بوصفها لغة مهمة في التواصل المعلوماتي الحديث لا تقلّ كفاءة عن غيرها من اللغات ،وهذا ما يمكن عدّه عن طريق القياس اللغوي عوربة ،وفي سبيل ذلك يجب أن تبذل أموال طائلة وبسخاء لإنجاز المشاريع اللسانية التي تجمع الذخيرة اللسانية[24] العربية وتطورها وتهذيبها بما يساير التدفق الهائل للمعرفة الإنسانية ،بعيدا عن ثقافة إنشاء المؤسسات في مناسبات بعينها لا تختلف كثيرا عن مقامات التأبين والتّشييع الجنائزي.

إن البعد التطبيقي في الممارسة التعليمية للغة العربية في شراكتها اللّسانية للغات عالمية أخرى كالإنجليزية والفرنسية والألمانية والروسية واليابانية

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

والإيطالية يجب أن يكون مدعما برؤية مستقبلية متجددة ومطلعة على عدد من التجارب التعليمية الرائدة في العالم بعيدا عن الدوافع الأديولوجية يكون همها الأساس التركيز على ربط الوجود اللساني العربي بالوجود الحضاري للأمة سعيا لتحقيق الوعي بالذات ومعرفة الآخر و إمكانات التعايش معه ،وتحقيقا لهذا التصور لابدّ من ضرورة الاستفادة من الوسائل السمعية البصرية والتنسيق مع الجامعات والمراكز الثقافية داخل الوطن العربي وخارجه بدرجة أكثر تأكيدا على تيسير وتعميم وترقية استعمال هذه اللغة على أن تكون هناك إرادة جادة من لدن الجميع ليتحول هذا المطمح الوجودي والمصيري بكثير من التضحيات إلى حقيقة معيشة.

4- المسألة اللغوية العربية والمتغير الحضاري

إن الوقوف على أزمة اللغة العربية في علاقتها بالثقافة والتراث والواقع ينطلق من محاولة الإجابة على تساؤلين مهمين هما:

أ- ما هو مصير اللغة العربية في ظل عولمة الثقافة وثقافة العولمة ؟

ب- كيف السبيل إلى إحداث قفزة نوعية لترقية اللغة العربية وجعلها لغة عالمية في ظل هذه التحديات الكبرى ؟ وينطوي تحت هذا السؤال الأصولي سؤال ثانوي هو :هل يمكن أن نعد العربية اليوم لغة عالمية حقا؟

وقبل الإجابة على هذين السؤالين لابد من الإقرار بأنّ اللغة العربية اليوم تعاني غربة اجتماعية بين الناطقين بها عن قصد وغير قصد ،وكان من نتاج هذه الغربة الاجتماعية ظهور غربة ثقافية للذات العربية وأزمة في تفكير الإنسان العربي، وطريقة رؤيته للآخر[25] في عالم متداخل من اللغات والإديولوجيات

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

والقيم ،وبات من القدر المحتوم أن يعاني الناطقون بهذه اللغة من ويلات التهميش في ركب التقدم العلمي الزاحف[26]، ومن هنا يظهر أنه ليس من السهل الدفع بالعربية إلى ساحة مواجهة غير متكافئة مع لغات أخرى تسيطر على حلبة الصراع الثقافي والمعرفي والتكنولوجي لذلك يتحتم على النخب أن تعمل على إيجاد حلول جريئة لبعض المشكلات المبدئية تتعلق ب:

1- ضرورة تيسير منظومة القواعد العربية في العملية التعليمية بالتركيز على مبدإ الوظيفة والتحديد الكمي ،والغرض التداولي للاستعمال اللغوي .

2- الفصل بين تعليم مسائل اللغة وكيفية استخدام اللغة في التواصل .

3- إعادة النظر في نوعية النص التعليمي الذي يعكس بنية اللغة العربية ، وقد آن الأوان لكي يعاد الاعتبار النوعي والكمي للنصوص الأصيلة في العملية التعليمية والمحادثة في جميع المستويات كما هو معمول به في البيداغوجيا الغربية .

4- كذا الإسراع في ضبط خطة تنموية صارمة مهمتها تنقيح المجموع من ألفاظ الحضارة والمصطلحات المختلفة و إيجاد آلية إجرائية تعمل على تعميم استعمال هذه الثروة في التعليم والتكوين.

5- إنّ بقاء وعطاء العربية في ظل ما تواجهه من تحديات يفرض علينا التخلص من مومياء النحو بفروعياته وتمحلاته في مرحلة تملك الملكة ،وحصر ذلك على المتخصصين فقط ،ولا أكون مبالغا إذا قلت بإزاء ما أراه من تدن في المستوى اللغوي لطلابنا في شتى البلاد العربية بأنني أشايع من دعا إلى تشييع جثمان النحو في صورته التي وصلنا بها، وكذا القول نفسه بالنسبة إلى البلاغة

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

المعيارية التي تفسد الذوق ولا تحسّنه أبدا ، فلِمَ لا نصطنع لعصرنا بلاغته ونحوه بعيدا عن الماضي والآخر؟ .

6- بالنسبة إلى مناهج التعليم يجب التركيز على أسلوب التعليم المستمر ، والتعليم الداخلي الذي تضمنه المؤسسات لموظفيها كما هو الشأن في دول العالم المتقدم .

7- إن الحالة اللغوية للجالية العربية في البلاد الغربية وجنوب شرق آسيا موضوع جدير بالدراسة قصد التعرف على الاحتياجات اللسانية لمتكلم العربية في محيط خليط من اللغات المتباينة[27]، والثقافات الخاصة ،والظاهر أن حاجات هذه الفئة محكومة بضرورتين أولاهما دينية وثانيهما حضارية ،وربما تمكنا بروح متفائلة من تحويل المحيط العربي والإسلامي إلى نموذج ناجح **لعوربة اللغات** بأن يعمل الناطقون بالعربية في تلك البلاد على تثبيت العربية ونشرها .

إن جملة من العقبات غير اللسانية تندّ عن الحلّ مرجعها الأساس حالة الضياع التي تعيشها الأمة في جميع المستويات، لعل أهمها المشكلة الاقتصادية ، وما ترتب عنها من تبعية للآخر الذي استغل الوضع الراهن إلى أبعد حد فراح يملي شروطه بلا هوادة إمعانا منه في الهيمنة وبسط النفوذ، والحقيقة أن سلفنا تنبه إلى ماغفلنا عنه زمنا إلى ارتباط اللغة بالعمران والغلبة فهذا **ابن حزم** الأندلسي (ت 654 هـ) يربط الوجود الإنساني بالوجود اللغوي ،مقررا أن اللّغة يَسقط أكثرها ويَبْطل بسقوط دولة أهلها ودخول غيرهم عليهم (...) فإنما يقيّد لغة الأمة وعلومَها وأخبارَها قوةُ دولتها ونشاط أهلها وفراغهم، وأما من تلفت دولتهم وغلب عليهم عدوّهم (...) فمضمونٌ منهم موت الخواطر، وربما كان ذلك

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

سببا لذهاب لغتهم (...) ،وهذا موجود بالمشاهدة ومعلوم بالعقل ضرورة[28]. وفي السياق نفسه يتنزل موقف **ابن خلدون** (ت 808 هـ) الذي صاغه قانونا كونيا ثابتا إلى حد بعيد من خلال ربطه بين اللغة والعمران البشري ؛فغلبة اللغة بغلبة أهلها، وأن منزلتها بين اللغات صورة لمنزلة دولتها بين الأمم.ومن هذا المنطلق التراثي ندلف إلى الحقيقة الحاضرة.

أما مسألة **الهوية** فهي الأكثر تعقيدا فبعضهم لم يفصل فيها إلى الآن ، بل الغريب أننا أصبحنا نشاهد صراعا طائفيا حلّ محل الهوية الوطنية تغذيه بعض الآراء المتطرفة الداعية إلى اتهام التاريخ ، والتشكيك في الكفاءة اللغوية للعربية لصالح اللهجات المحلية والدعوة إلى الارتماء بين أحضان الآخر دون قيد أو شرط ،فاتسع الشرخ بين الذات وهويتها اللغوية. ،وهنا لابد من التذكير بنقطة مهمة أفادنا بها د.**عبد السلام المسدي** ملخصها رفض عد العاميات وسيطا ثقافيا موازيا للغة العربية بالرغم من كونها شقيقا طبيعيا مايلبث أن يتحول إلى عدو إيديولوجي بكل قيمه السلبية الناسفة[29]وكذا اللغات العالمية المستعملة في نفس النطاق الجغرافي ،وجعل المتكلمين يركزون على اللغة العربية الحية ممثلة في العاميات المنتشرة هنا وهناك إلى درجة توظيف هذه الأنظمة في الممارسة الرسمية في الصحافة والكتابة والتدريس بمختلف مستوياته من الإعدادي إلى الجامعي،بالإضافة إلى انتشار الأمية بخاصة بين البالغين[30]لذا لايتوقع أن يتعلم الآخر العربية والذات العربية عاجزة عن تحقيق ذلك لنفسها ،ناهيك عن حالة الاستلاب الحضاري والشعور بالهزيمة أمام الآخر ومحاولة اتخاذ ذلك مبررا للتبعية الثقافية واللسانية والإدعاء الواهم بالسقوط القسري في هوة العولمة وشراكها المتين ،وكفى أن نلقي بأبصارنا من بعيد على لغة **الخطاب الإشهاري** !

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

إنّ الإشكالية اللغوية في الوطن العربي ملخصة في تحييد العربية عن أداء دورها التواصلي في التنمية ومعادلات الأرقام في عالم المال والأعمال وهذا ظاهر من واقع التعريب في الاقتصاديات العربية جملة ،وهذا ما أسس لذهنية سلبية ترى في العربية مجرد واقع اجتماعي قائم لامناص منه،بل نذهب بعيدا إلى حد عدّها ميراثا تركه الآباء والأجداد لا يمكن أن يمثل عالم اليوم بإنجازاته وابتكاراته وتجاوزا لكثير من التناقضات في إطار ترقية التعليم اللغوي لابد من استثمار مناهج وطرائق التدريس الحديثة في اللسانيات التطبيقية في تعليم العربية لأنّ هذه الطرائق تأخذ بعين العناية الاختلافات الجوهرية بين المتعلمين ورغباتهم وميولهم وكفاءاتهم ومهاراتهم وثقافاتهم ،ولأنها تركز عما يسمى بالمتكلم المفترض ، كما أن هذه الطرائق الحديثة تسعى إلى بناء أشكال اتصالية بين المتعلم للغة والمعلم لها من خلال التركيز على كفايات ومهارات المتعلم نفسه(31)، بالإضافة إلى ضرورة الإفادة من اللسانيات للإجابة عن كثير من الأسئلة المتعلقة بخصائص النظام اللغوي و إمكان تداخله مع آخر(32)وكيفية الاستفادة من هذا التداخل وتوجيهه وجهة الشراكة لا التناقض في عملية تعليم اللغة العربية واللغات الأجنبية في الآن نفسه(33)،وفي هذا الإطار يمكن الإشارة إلى أنه ومن بداية القرن العشرين الى نهايته كانت المسألة اللّغوية في الفكر العربي الرّمزَ الأبلغ في معضلة اللقاء بين الأنا والآخر ،وثمرة ذلك أن انبرى بعض اللغويين يصاهرون بين التراث والعلم الجديد المعروف في الغرب باللسانيات، وبرزت جهود أعلام روّاد بدأها **علي عبد الواحد وافي** ،وشاركه الجهدَ التأسيسي **إبراهيم أنيس وحسن ظاظا وأحمد مختار عمر ومحمّد كمال بشر وتمام حسان ومحمود فهمي حجازي، ورمضان عبد التواب** وهم أعمدة هذا العلم في مصر، وقد سموه

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

علمَ اللّغة وسايرهم في هذا علماء العراق وفي مقدمتهم **إبراهيم السامرائي**، ووازى جهدَهم جهدُ رواد من المدرسة اللبنانية سمّوه الألسنية ،وكان من بينهم **أنيس فريحة وريمون طحان** ثمّ **ميشال زكريا** ،وفي سوريا **مازن الوعر** في كتابه قضايا أساسية في علم اللسانيات الحديث ،وفي السعودية **حمزة بن قبلان المزيني** من خلال أعماله القيمة في ترجمة الخطاب اللساني عند رائد التوليدية وأشهر أعلامها، وفي الجناح الآخر من العالم العربي تبوأ ريادة العلم في الجزائر **عبد الرحمان الحاج صالح** من خلال مدرسته الخليلية الأصيلة وأبحاثه في الصوتيات المختبرية، وفي تونس **صالح القرمادي**،و**محمد رشاد الحمزاوي**، وفي المغرب **أحمد الأخضرغزال** و**أحمد المتوكل** و **الفاسي الفهري** ، واستقر على هذا العلم في المؤسسات العلمية الجامعية بوصفه أهم ميدان لدراسة اللغة العربية دراسة علمية نظرية وتطبيقية ، وكانت الأزمة في كيفية التوفيق بين التراث وما جاءت به اللّسانيات المعاصرة ،وهذا مظهر آخر من مظاهر انشطار الذات على نفسها في ضوء موقفها من الآخر وعلاقة ذلك بالهوية التي تلبست بالتراث فأصبح هو هي عند السواد الأعظم من الناس(34)وفي هذا السياق أرى أنه من الضرورة الملحة أن تخلص الرؤية العربية والإسلامية من وهم الصفاء الذي عكر صفو العلاقة مع اللغات الأخرى على الرغم من أن القرآن نموذج العربية الراقي يستوعب التعدد اللغوي والخصوصيات الثقافية في ضوء مبدإ العالمية(35)،كما أن القدماء أنفسهم رفضوا هذا الوهم وقد نص **ابن حزم الأندلسي** على هذا بقوله : ...وقد توهّم قوم في لغتهم أنها أفضل اللغات، وهذا لا معنى له لأن جوه الفضل معروفة،و إنما هي بعمل أو اختصاص(36) ... ، وهذا التصور هوالذي ضمن بقاءها متعايشة مع لغات أخرى(37).

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

5-البحث اللغوي العربي الحديث ومسألة الهوية اللغوية

إن التراجع عن دراسة التراث في الفترة الأخيرة-في نظري- لحساب النظريات الغربية الحديثة في ميادين اللغة والأدب والثقافة بوجه عام لهو دليل هزيمة وقبول بمنطق الآخر الداعي إلى تغييب الذات بدعوى الإصلاح،علما أنه -أي الآخر- كان قد امتلك ناصية تراثه فحاوره ونقد أنساقه الداخلية تحليلا وتركيبا ، ثم صاغ وجوده الحديث معرفيا ومنهجيا اعتمادا عليه في علاقة حميمية مع متطلبات اللحظة الراهنة ،وربما لا أكون مغاليا إذا قلت بأن اللحظة الغربية الراهنة بما تحيل عليه من منجزات في جميع الأصعدة وفي مقدمتها الأنظار اللسانية المختلفة لهي وليدة عملية تفريعية واشتقاقية من اللحظة التراثية ممثلة في الفكر الأرسطي والأفلاطوني والتيار العقلاني في القرون الوسطى[38]،إلا أن أصنافا من الباحثين في الضفة الشرقية لأوربا رأوا أن النجاة كلها في اقتفاء أثر هذه الإيديولوجيا الجديدة وما تطرحه من أفكار ومناهج ونظريات،دون رعاية للاختلافات المتكررة والتي تصل إلى حد التناقض بين مكونات هذه الإيديولوجيا، ومما أسفر عنه في درسنا اللغوي المعاصر -مثلا- الاقتلاع الخاطئ للنظريات اللسانية الغربية وأفكارها النظرية ومناهجها التحليلية ، ومحاولة زرعها في تربة غير مخصبة ، ليست تربتها الأصلية بدعوى أن المناهج لا تعرف الحدود الجغرافية وأنها عالمية كعالمية الفكر البشري هكذا تتراءى لي دعوات بعض اللغويين العرب في المشرق والمغرب العربيين في هذا السياق .

6-مستقبل اللغة العربية بين التعليم والتعميم

إنّ النظر إلى اللغة العربية في زحام العولمة بالقدر الذي يأسف فيه على تراجعها الحضاري ،ولذلك أسباب مستقلة عنها من حيث هي لغة طبيعية

المنارة للاستشارات

www.manaraa.com

لا يفارقه التفاؤل وهو يتطلع إلى الآفاق المستقبلية بإمكان اللحاق بركاب اللغات العالمية في إنتاج المعرفة بها ثم انتشارها ، على أنّ واقعها الراهن يعكس احتلالها لموقع مقبول نوعا ما إذا قيس بالتدني الاجتماعي للأمة ؛فهي مستعملة رسميا في التعليم بمختلف أطواره في أغلب الدول العربية وفي تخصصات دقيقة وعلمية وفي المحافل الدولية ،ولها مواقع مهمة على الشبكة الدولية للمعلوميات، ولها وسائل إعلامية وأقمار فضائية تروّج لها ، كما أن الثّقافة العالمية في إطار حركة الترجمة لا تنفك تعتني بترجمة الآداب المكتوبة بها ،واستعمالها وسيلة تبليغية في المسرح والسنما والصحافة المكتوبة والمرئية المحلية منها والعالمية وهذا أمر يبعث على التفاؤل دوما .

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

الهوامش والإحالات

[1] - مصطفى العبد كفري ،العولمة الهاجس الطاغي في المجتمعات المعاصرة ، موقع الحوار المتمدن .

[2] - يمكن أن أشير إلى تعريف المفكر الجزائري أحمد بن نعمان للهوية في كتابه اشهدي ياجزائر؛ الهوية لفظة مركبة من هو الضمير والمضاف إليه ياء النسبة لتدل اللفظة على ماهية الشخص ، أو الشخص المعني كما هو في الواقع، والهوية اسم الكيان بناء على مقومات ومواصفات معينة تمكن من معرفة صاحب الهوية بعينه دون اشتباه مع أمثاله من الأشياء ، دار الأمة ، الجزائر ، طبعة .

[3] -انظر في سياق مماثل ، محمود الطناحي ، القرآن الكريم وتفسير العوام ، مجلة الهلال ، عدد يناير،1999، ص75.

[4] -محمد الخناش، البنيوية في اللسانيات ، ص214 كما يمكن أن يشار هنا إلى موقف البنيوية الأمريكية من العلاقة القائمة بين النسقين اللغوي والاجتماعي الثقافي وهي قائمة على التغاير عند هوكيت مادام التطور يمس النسقين بشكل مستقل وفي اعتقاده أن محاولة الربط بينهما محاولة يائسة الغرض منها الحط من لغات معينة تنعت ثقافتها بعدم النضج أو التخلف فيحكم على رداءة اللغة بهذا العامل ،محمد الخناش ،البنيوية في اللسانيات ، ص148

[5] - ولعل من أهم التعريفات المحدثة لمصطلح الثقافة ذلك الذي صاغه في بدايات القرن العشرين **إدوارد برنت** ؛حين قرر أن الثقافة بمعناها الإثنوغرافي الواسع هي ذلك الكل المركب الذي يشمل المعرفة والمعتقدات والفن والأخلاق والقانون والعرف وكل المقدرات والعادات الأخرى ،والتي يكتسبها الإنسان الاجتماعي، ويتسق هذا التصور مع كثير من الآراء النظرية العربية التي تشيد بمبدأ الخصوصية في المكون الثقافي ، ولعل الدراسة التي قدمها **أحمد أبو زيد** والموسومة بهوية الثقافة العربية من النماذج الجديدة بالتنويه في سياق توصيف خطاب الحداثة الثقافية العربية، ناهيك عن اتصاله بالبعد اللساني العربي والذي يمثل أهم الركائز التي تقوم عليها الذات العربية، في إثبات خصوصيتها بالإضافة إلى ركيزتين أخريين لا تنفصمان عن بعضهما هما الدين والتراث، لقد باتت هذه المكونات الثلاث بتلاحمها هوية للعربي في كل زمان ومكان.

[6] -سابير ،اللغة،ص68و 75

[7]-A.Sommerfelt,structures linguistique de groupes sociaux,p13

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

[8] –ميشال زكريا ،الألسنية علم اللغة الحديث ، ص223

[9]-J.vendryes,langage orale et langage par jeste,1950,p05

[10] - إيدجر بولوم ، اللغة والسلوك ضمن الموسوعة اللغوية،منشورات جامعة الملك سعود ، 460/3، من المعلوم أن بنيامين لي وورف صاغ فرضيته حول النسبية اللغوية في مقابل التصور العالمي لما هو مشترك من قواعد لغوية كلية .

[11] - يحي أحمد ، الاتجاه الوظيفي ودوره في تحليل اللغة ، مجلة عالم الفكر ، مجلد 20، عدد3، ص75.

[12] - المرجع نفسه ، ص76.

[13] - المرجع نفسه، ص89.

[14] - كان هذا الموضوع إشكالا أكاديميا في مؤتمرات عدة عقدت في الجامعات الجزائرية لعل أهمها مؤتمر دولي عقد بالجزائر العاصمة بتاريخ 12-2004/5/13، وكان موضوعه : العولمة وأثرها على الثقافة الإسلامية وكان من بين المحاور : الهوية الثقافية في زمن العولمة.وكذا مؤتمر المجلس الأعلى للغة العربية ، اللغة العربية ومكانتها بين اللغات العالمية ،شارك فيه لفيف من الباحثين العرب،من أمثال نهاد الموسى وتمام حسان وأحمد حساني ,وغيركم بتاريخ2003

[15] - العولمة أوما يسمى ب:GLOBALISATION في الثقافة الإنجليزية و MONDIALISATION في الثقافة الفرنسية،الشائع كونها رديفا للثقافة الشمولية والنزعة إلى تعميم الظاهرة الخاصة على العالم كله لأغراض محددة سلفا ،والدعوة إلى الاقتصاد الحر من خلال هيمنة مطلقة للشركات متعددة الجنسيات التي لا تعترف بالحدود القارية بل تنظر إلى العالم نظرة رقمية بحتة ،مختزلة التعددية الثقافية والخصوصيات الحضارية في إيديولوجيا واحدة هي العولمة.

[16] -منظمة اليونسكو ، التربية ذلك الكنز المكنون ، مجلة التربية ، الدوحة ، قطر ، عدد 120، سنة 1997ص38 بتصرف

[17] -علي حرب ، حديث النهايات ،فتوحات العولمة ومآزق الهوية ،بيروت ،2000،

[18] -السيد يسن ، العرب والعولمة ، ص24.

[19] -فلوريان كولماس ،اللغة والاقتصاد ، سلسلة عالم المعرفة ، ص140.

[20] -زكا نجيب ، رحلة اللغة والثقافة العربية إلى فرنسا تعليمها في المعاهد العليا والجامعات ، أعمال ندوة 6-8 نوفمبر ، الجزائر ،2000، ص470ومابعدها .

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

[21]-فلوريان كولماس ،اللغة والاقتصاد ، ترجمة أحمد عوض ، عالم المعرفة ، عدد263، سنة 2000، ص 130.

[22]-عبد السلام المسدي ،العولمة والعولمة المضادة ، كتاب سطور ، ط1 ، القاهرة ،2000، ص393 .

[23]-عبد الهادي التازي ، هل في استطاعة العولمة أن تهدر الهوية ؟ مجلة الأكاديمية الملكية ، الرباط ، 1997، عدد العولمة والثقافة ، ص67 بتصرف .

[24]-انظر تصور الذخيرة اللغوية وأهدافه وآلياته فيما وضعه عبد الرحمن الحاج صالح الذي أوصى بضرورة ترشيد العامية بتقريبها إلى العربية عن طريق البحث في أصول الكلمات و إدماج ذلك كله في الذخيرة ونشرها عن طريق وسائل الإعلام والمؤسسات العلمية والتربوية ،وكذا بناء المناهج الدراسية الخاصة بتعلم العربية على أسس علمية ولسانية ، أنظر مقالته في ندوة بناء المناهج التعليمية، جامعة محمد بن سعود ، الرياض ، 1985، نشر في المجلة العربية للتربية ، مجلد 5، عدد02، 1985 ،ص11-30.

[25]-نعمان بوقرة ، صناعة المصطلح عند الفارابي ،مجلة اللغة العربية المجلس الأعلى للّغة العربية ، عدد08 ،سنة 2003، ص177.

[26]-سعيد السريحي ،شجاعة العربية وأوهام النقاء ، أعمال الندوة الدولية :مكانة اللغة العربية بين اللغات العالمية نظمها المجلس الأعلى للغة العربية،6-8نوفمبر ن2000، الجزائر ،105.

[27]-نبيل علي ،الثقافة العربية وعصر المعلومات ،عالم المعرفة ،عدد2001،276 ،ص270.

[28]-ابن حزم الأندلسي ، الإحكام في أصول الأحكام 13/1

[29]-عبد السلام المسدي ، العولمة والعولمة المضادة ، ص409.

[30]-موجز استراتيجية تطوير العلوم والثقافة في الوطن العربي ،المجلة العربية للعلوم ،عدد15، 1990، ص16 وما بعدها .

[31]-ميلود حبيبي ،الاتصال التربوي وتدريس الأدب ،دراسة وصفية تصنيفية للنماذج والأنساق ، المركز الثقافي العربي ،ط01،الدار البيضاء ،ص73.

[32]-لمزيد من التفصيل في أهمية المنهج اللساني في تعليم اللغات بعامة والعربية بخاصة أنظر عبد الرحمن الحاج صالح ،أثر اللسانيات في النهوض بمستوى مدرسي اللغة العربية،مجلة اللسانيات ، عدد04،سنة 1974 ، الجزائر ، ص24.

المنارة للاستشارات

www.manaraa.com

[33] -Denis Girard ,linguistique applique et didactique des langues,Paris ,Armand Colin .p19, 1972, وفي هذا الإطار يجب التركيز على الدافع البراغماتي في اختيار اللغات التي نعلمها ونتعلمها في سياق تعليم العربية وفق أسس ثلاثة هي :

1-عالمية اللغة وعلميتها

2-التأمل الاقتصادي والتكنولوجي والثقافي أنظر تفصيلا صالح بلعيد ،رأي في تعميم استعمال اللغة العربية ، مجلة التعريب ، سوريا ،المركز العربي للتعريب والترجمة والتأليف والنشر، سنة ، 1998،عدد 16 .بتصرف

[34] -عبد السلام المسدي، الهوية اللغوية ورياح السياسة ، أفكار ، مجلة فكرية إلكترونية afkar@afkaronline.org،

[35] -سعيد السريحي ، شجاعة العربية وأوهام النقاء،ص106 بتصرف.:ما ينظر مقال علي القاسمي،شروط عالمية اللغة العربية وكيفية توفيرها للغة العربية ، الذي لخّص فيه شروط عالمية اللغة ،مركزا على الشروط التاريخية والثقافية والاقتصادية والسياسية والعسكرية ، دون التقليل من دور التقدم التكنولوجي والموقع الجغرافي والتوزيع الجغرافي للناطقين باللغة ،ص200ومابعدها

[36] -ابن حزم ، الإحكام في أصول الأحكام ، تحقيق ،32/1.

[37] -علي القاسمي اتجاهات حديثة في تعليم العربية للناطقين باللغات الأخرى ،جامعة الرياض ، الرياض ،1979 ،ص15 وما بعدها .

[38] - كان جاك دريدا مؤسس مذهب التفكيك من أوائل المفكرين الغربيين الذين حاولوا قراءة التراث الغربي المتمركز حول اللوغوس محاولا هدم أنساقه المعرفية لصالح مركزية الكتابة التي تعبر عن الوجود الغربي الجديد في قطيعة مع أصول التفكير الماضوي.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com